الأخلاق

لقد كان من تأثير السلام والتقدم الذى أصابه العالم تحت ظلال الأمبراطورية الرومانية قيام حاجات جديدة عند الناس . ولقد كان المثل الأعلى للانسان فى الأمبراطورية أن يكون جنديا أو مواطناً صالحا . ولكن لما أخذ الناس يهجرون القتال والحياة السياسية أعنى الحياة الخارجية، تحولوا نحو البحث عن متع الحياة الداخلية . ونشطوا فى تقوية نفوسهم على الفضائل الاخلاقية بدلا من الفضائل الحربية والمدنية القديمة . كانت هذه الحركة بطيئة فى أول أمرها تحت حكم الاباطرة الاول ولكنها أخذت تتسع تحت حكم أنطونيوس حتى كان حكامه مثالا لهذا التحول الاخلاقى

كانت كل الاسئلة التى تمكن الانسان من وضعها عن مصيره وقيمته وواجبه . بعيدة عن أن تجيب عنها الديانة الرومانية . لأنها لم تكن تشتمل فى الواقع تعليما أخلاقياً . فقد انتصرت على تقديم الضحية تأمينا ضد المصائب التى قد تحدث . كأن الله يبيع حمايته ولكنه لم يعط قواعد لكى يعيش الناس بمقتضاها عيشة طيبة . لقد أوجد احترام الملكية والعقود ولكنه لم يرشد الضمائر . فلم يتعد اختصاصه المسائل العادية

اهتمت الفلسفة الاغريقية بالمسائل الاخلاقية فقد توصل بتاجور وسقراط وافلاطون الى فكرة إله عظيم . وفكرة التمييز بين الخير والشر وإلى كثير من القوانين الاخلاقية .ولما افتتحت اليونان انتشرت فى روما عادة دراسة الآداب الاغريقية . وأخذت عقول نخبة القوم تشغف بنظرياته النبيلة . فلم تعد هذه النظريات موضوعا للمناقشة بين المتعلمين بل أصبحت قواعد أخلاقية شعبية منذ اليوم الذى ترجمها فيه شيشرون الى اللاتينية . وبذلك أصبح علم الأخلاق فى متناول كل من يعرف القراءة

أصبح فى عهد الامبراطورية الاهتمام بقاعدة للحياة عاما . واصبح الشعور شديدا فى أنه لا يكفى . لكى يكون الانسان شريفاء الخوف من القانون أو البوليس فأخذوا يبحثون عن المشورة عند الفلاسفة . وكان أشهرهم حينذاك سنيكا . كان يدعو الى احتقار الثروات واحتمال الالم والاهتمام بالفضيلة الانسانية وكانت هذه تعاليم الفلاسفة الرواقيين الشديدة . لقد سببت الزهو والانانية ولكنها أوجدت واجبات الضمير وقالت بأن كل انسان مقدس . ولذلك منعوا العبودية وقتال المبارزين

إن التعاليم التى بشر بها سنيكا طبقها ابكتيت تطبيقا عمليا وقد كان عبدا معتقا لنيرون . عاش عيشة الفقر والقداسة محتقرا الثروة محاولا الوصول إلى الكمال الأخلاقى

إن نفس شعور الواجب هذا ، وجد عند الامبراطور مارك أوريليوس من بعد ولم يقتصر على القيام بواجباته نحو نفسه ، بل اهتم أيضاً بواجباته نحو الآخرين ، ولكن رغم انتشار نظرية الرواقيين فانها ظلت مقصورة على نخبة من المفكرين بدون تأثير على الجمهور . لأنها كانت تخاطب العقل لا القلب . ولأنها تتطلب من الانسان جهداً للارادة المفكرة بدلا من وثبة الضمير والحب كان الناس فى ذلك الوقت يأتون من جودا يعجدون المتواضعين مسرات الفضيلة قائلين انها ليست نتيجة العقل الذى لايشعر بشيء ولكنها تدفق القلب الذى يدفع الضرر إلى حب الله والناس والخير

وجد الجمهور الذي تحرك قلبه فى هذه الكلمات عذوبة عظيمه وتعزية لمصائبه . وكانت هذه الروح الجديدة التى أخذت تدخل العالم القديم وتحوله حتى غيرته هى المسيحية

أخذ الدين الرومانى الوثنى يسير نحو الضعف وغصت الامبراطورية بالفلاسفة واخذ أشراف الرومان يسخرون من أربابهم فلم يبق من الدين القديم إلا مراسيمه وظواهره ، ولما كثرت المهاجرات تداخلت الأديان فصارت العقائد الخاصة باحداها تدخل فى الآخر وكثرت المظالم وأصبح الفقر نصيب تسعة أعشار سكان الامبراطورية الرومانية . ولكن نشأت بجوار ذلك عدة محاولات شديدة للمزج بين الفلسفة والمبادىء الشرقية الدينية القديمة لتكوين فلسفة دينية جديدة منها يمكنها أن توصل الانسان إلى الايمان والاطمئنان وبالتالى إلى السعادة الانسانية المنشودة

ولأجل أن يصير هذا المزج ممكناً ومقبولا قد تحتم إذ ذاك وجود قاعدة أساسية توصل إلى ذلك . وقد كانت هذه القاعدة سهلة الوضع بالفعل ، فقد صورها الفلاسفة حينئذ فى أن مصدر الفلسفة الاغريقية وينبوعها الأول هو عين مصدر المعتقدات الدينية الشرقية القديمة وينبوعها الأول أيضا وهو الوحى السماوي وقالوا : كما أن الحقائق قد هبطت على العقل الانسانى من السماء كذلك الاراء والمذاهب الفلسفية الاغريقية الحرة قد فاضت على التفكير البشرى من عالم المعنى

زادت القرابة بين الأديان والنظر الفلسفى وارتفع التنافر والتضاد بينهما وأثبتت الفلسفة أن القوة الالهية مبدأ الوجود العام وفوق كل المدركات

بهذا الفكر وما يتبعه من تهذيب العقيدة وتأويل الوحى وتحوير الاراء الفلسفية مهد الطريق لظهور المسيح وانتشار المسيحية التى التقى فيها الفكر الفلسفى مع الدين متحابين

انتشرت المسيحية بين أكثر الناس لأنها ديانة البر والتسامح والغفران ولم يكن من السهل أن يؤمن الناس باليهودية لأنها كانت تقصر الدين الموسوى على اليهود كأنهم شعب الله المختار ، بينما كانت المسيحية تقبل جميع الناس

كانت المسيحية فى أول أمرها مستمدة من اليهودية وحدة الله وقدرته وخلود الروح وعقاب

وثواب العالم الاخر ، وأهم ماجاءت به التعاليم الأخلاقية للمسيحية حب الله ، فمن الواجب ألا نخشى إلا الله فقط كما يفعل الوثنيون وقدماء اليهود بل يجب أن نحبه بكل عواطفنا كما يحب الابن أباه ونعمل كل مانستطيع فى سبيل هذا الحب وكل الناس اخوة يجب أن يتحابوا . حب جارك كما تحب نفسك . حب من لايحبك . حب أعداءك . لاتتعلق بمتاع هذا العالم . لاتطمع ولا تتكبر لأن الله يحب المتواضعين والمتألمين والتعساء

لننظر الان كيف انتشرت المسيحية ونظرا لتعدد البيئات التى اعتنقتها سنقتصر على سرد كيفية انتشارها فى مصر :

أخذت المسيحية فى الانتشار فدخلها كثير من العقائد الفاشية فى ذلك الحين ، ويسر هذا التداخل على الناس الايمان بالدين الجديد ، فاعتنق كثير من الناس المسيحية لقلة الفروق بينها وبين العقائد الفاشية . حلت العذراء محل ايزيس وكانوا قبل يصورونها كالنجم سيروس طالعا على الشمس فصاروا يصورون العذراء فوق هلال صاعدة للسماء وحل الثالوث المقدس «الأب والابن والروح القدس» محل الثالوث المعروف فى الاسكندرية باسم « سيرابيس وايزيس وهاربو كريتس » وعند باقى المصريين باسم « أوزوريس وايزيس وهورس » وظل المسيحيون يطلقون لفظة الله والتى ترجمتها بالهيروغليفية نيتر على اله عيسى . وظلوا يقدسون بعض الأشجار فقالوا بان اللبخ هى شجرة يسوع المقدسة . لأنها أظلته وأبويه حينما أتوا مصر وسجدت له . وحل كهنة المسيحية محل كهنة ايزيس ، فظلوا يلبسون جبة الكتان البيضاء التى كان يلبسها كاهن ايزيس ، واستمروا يجزون الشعر من وسط الرأس كما كان يفعل كهنة قدماء المصريين . وكان الكهنة فى طيبة يسمون حجاب باب السماء فصاروا فى عهد المسيحية يسمون حاملى مفاتيح السماء . واختلط فى ذهن القسيسين أنفسهم الصليب المسيحى بالعنخ المصرى ، والعنخ هو رمز يرمز به الي الحياة ، كان المصريون يرسمونه فى قبر الميت ، وظل الصليب يذكر فى الانجيل بانه رمز الحياة ، كما كان يرمز الى العنخ نفسه عند المصريين ، وقد رسم العنخ فى الكنائس القبطية كأنه هو والصليب شىء واحد ، ولم يجد المسيحيون تغييرا فى صورتهم التى تصوروها عن العالم الأخروى فان بوابة العالم السفلى المذكورة فى الفصل الأخير من الانجيل هى تلك البوابة النارية للعالم السفلى عند قدماء المصريين

ظل المسيحيون فى مصر يحنطون موتاهم كما كانوا يفعلون قديما . وكانوا يشعلون الشموع بمعابدهم المظلمة فصاروا يشعلونها بجميع الكنائس مظلمة أو منيرة ، وكان لهم عيد الشموع ، فصار عيد الشعانين ، وكان لهم عيد آخر يأكلون فيه الحلوى ، فصاروا يحتفلون بنفس هذا العيد فى السادس من كانون الثانى . وهو اليوم الموافق للتقويم القديم ويسمونه عيد الظهور

لم تتفق المسيحية الناشئة مع نظام الحكومة الرومانية الذي كان يرمى الى التشدد في تقديس الامبراطور واكباره الديني . حتى أصبح أشبه بآله يعبد وتقدم له القرابين كما هو الحال مع الآلهة فكان تعصب المصريين للمسيحية شديدا لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه امبراطرتهم على الرغم من مجهوداتهم الكبيرة ، مقاومة عنيفة وعنادا كبيرا وصلا الى حد الجنون ، فاعتبر المسيحيون خارجين عن الدولة والدين الرسمى فلم يك بد من الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم الى الوثنية وردهم الى الطاعة والخضوع للقوانين العامة ، فأسرف بعض الامبراطرة فى قتل المسيحيين وتعذيبهم إسرافا شنيعا . جر عليهم السخط والكراهية وخصوصا دقلديانوس فقد كثر عدد من قتلوا فى عهده وتناول الاضطهاد جميع الطبقات وقد أصدر سنة ٣٠٣ م منشورا امبراطوريا يأمر فيه بهدم الكنائس وازالتها من الوجود واحراق الكتب المقدسة وفصل الموظفين المسيحيين من خدمة الدولة وحرمانهم من حقوقهم الوطنية واعتبار جميع المسيحيين عبيدا ارقاء . فكره المصريون دقلديانوس ، وحنقوا عليه . ورأوا فيه مثالا للظلم والاستبداد وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش « ٢٨٤ م »

دفع هذا الاضطهاد المصريين منذ أواسط القرن الثانى الى اعتناق الرهبنة . هذا وقد استمالت ايضا طبيعة صحراء مصر من يرغبون فى الابتعاد عن العالم . فنشأت الأديرة . وكان أهم هذه الأديرة بمنطقة وادي النطرون . ويعتبر أنبا بولا أول النساك وأبا الرهبنة المسيحية فى مصر . الا ان أقدم الأديرة قد شيده الأنبا أنطونيوس الذى توفى سنة ٣٦١م . وكان لدير القديس مقار المتوفى سنة ٣٩٤ م . وغيره من أديرة وادى النطرون شأن عظيم . وكان دير طيبا أهم أديرة الصعيد وكان الكهنة يعيشون فيه كما يعيش قدماء المصريين . وكانت به كنيسة على الطراز المصرى القديم ويبلغ عدد الرهبان فى القرن الخامس نحو خمسة الاف وكان أشهرهم أنبا باخوميوس «٣٤٨ م» وأنبا شنوده « ٤٥١ م »

بدأت الرهبنة مع بولا وانطونيوس بالوحدة والانفراد ثم تدرجت مع مقار إلى شيء من الاجتماع والاشتراك وانتهت بالمعيشة فى جماعات منظمة مع باخوميوس وشنوده . وذلك لأن عدد الرهبان بدأ صغيرا ثم أخذ فى الزيادة حتى أصبحت الأديرة لا تقتصر على الصلاة والعبادة . بل كانت بها دور واسعة للعلم والأدب والفلسفة . وفيها مدارس زاهرة للصناعات والفنون ولو على قلة . وكان الرهبان تلامذتها الداخليين وأبناء العائلات المقيمون بالبلاد المجاورة تلامذتها الخارجيين . وكان كثير من الرهبان بدير أبى مقار يشتغلون بالمعارف والآداب ومهمتهم التأليف والتصنيف ونسخ الكتب . أما فى أديرة باخوميوس وأنبا شنوده فكان يتلقى الافراد بمدارسها أصول القراءة والكتابة . ولم

يكن التعليم مقصورا على الذكور بل كان يتناول الأناث أيضا

ولما اعتنقت الديانة المسيحية اعترفت بالرهبنة فى مصر وسمحت للرهبان بامتلاك العقارات والاراضى ومنحتهم حق الأرث فأخذ يتسع نطاق الرهبنة وتقوي شوكتها . وساعد على ذلك إعفاء الرهبان من الضرائب والسخرة . وكثيرا ماقاوموا الحكومة وبنى بعضهم صوامعهم على شكل قلاع ليدافعو عن أنفسهم ضد غزوات القبائل عندما تكون الحكومة ضعيفة

وأخيرا أصاب الرهبنه ما أصاب كل شيء فى مصر فقد أدى توالى الاضطهادات الى الفوضى والتأخر الاقتصادي فانحطت جميع مظاهر النشاط فى مصر وأخذت تبتعد عن أزمنة العلم وتسير نحو غياهب الجهل فأصبحت الرهبانيه التى نشأت فى أول الامر لصالح الدين تقليدا أعمى لرهبان قدماء المصريين وصار الرهبان يستعملون الرقى ويفرطون فى الصوم للتفاخر به ولا يغتسلون وأصبحوا فى تأخر شديد مقيدين بقانون الرهبنة المطول . وأخذت المسيحية نفسها تبتعد عن غرضها الأصلى فقد كثر القديسون . وأصبحت الكنيسة هى الوسط بين الفرد وبين الله . وأصبح لله شخصية منعزلة . لايستطيع الانسان أن يتصل بها مباشرة

تركنا المسيحية مضطهدة فى عهد دقلديانوس . وقد ظل هذا الاضطهاد مستمرا حتى جاء قسطنطين « ٣١٣ — ٣٣٧ م » وكان المسيحيون فى أيامه أكثر عددا من الوثنيين ، فاعتنق قسطنطين المسيحية سنة اعتلائه العرش فأصبحت المسيحية منذ ذلك العهد ، وهى دين الكثرة ، الدين الرسمى للامبراطورية

ولما جاء تيودسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) حارب الوثنية محاربة شديدة وفى عهده أصبحت الاسكندرية مركزاً عظيما لهذا الدين ، فعهد إلى بطريكها تيوفيل محاربة وثنيى الاسكندرية فأخذ هذا يرغم الناس على اعتناق المسيحية ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يهدم المعابد والآثار والتماثيل . ثم قصد المسيحيون الى السيرابيوم وعند ما التجأ اليه بعض من الفلاسفة والنحويين والشعراء فراراً من بطش النصاري ، أخذوا يكسرون مذابح آلهة المصريين بعد أن أخرجوا ما كان فيه من الكهنة والعلماء ، ولما تم لهم الاستيلاء عليه حولوه إلى كنيسة سموها الأركاديوم ، وسلبوا ما كان على تمثالى سيرابيس من الحلى والزينة ، وهشموه ورموا أجزاءه فى الطرق ، ثم حولوا كثيرا من المعابد إلى كنائس فغيروا وضع أبنيتها وقلبوا شكلها لتلائم الدين الجديد . واستمروا يضطهدون اتباع العقيدة القديمة حتى اضطر زعماء الفلاسفة إلى الانسحاب من الاسكندرية ، وأخيراً حرقوا هيباتيا « ٤١٥ » فيلسوفة الاسكندرية المشهورة

لقد فعلت يد الدين الجديد فى معابد دامت على الأرض آلاف السنين ما لم تفعل بها عاديات الحروب والاغارات ، فلم يبق منها إلا ما عجزت يد المتمدينين الجدد عن هدمه ، على انهم محوا من

تلك المعابد الباقية صور الآلهة الأقدمين ، فلما رجع المسيحيون إلى رشدهم لم يذكر مؤرخوهم هذا العمل البربرى ، ولكنه ظل رغم ذلك نقطة حالكة فى تاريخهم

كان الناس يعتقدون أن كنيسة روما أسسها الرسول بطرس ، ولذلك اعتبرت أولى الكنائس فى الغرب ، إذ ليس من بينها من تستطيع أن تفاخر بأن مؤسسها رسول . وساعد على ذلك أن روما كانت سيدة العالم وعاصمة الأمبراطورية فاعتبر أسقفها أول الأساقفة

إلا أن الكنيسة ظلت تحت حكم الأمبراطورية الرومانية . فلما أخذ البرابرة يغزون الأقاليم الرومانية فى أواخر القرن الرابع . وفى أثناء القرن الخامس بعد الميلاد . أخذت الحكومة الرومانية تضعف شيئاً فشيئاً . وأخذت الكنيسة فى نفس الوقت تتخلص تدريجيا من تدخل الحكومة فى شئونها ورقابتها عليها

ولما صار ليون الأكبر (٤٤٠ — ٤٦١) أسقفا لروما وكان رجلا عالى الهمة . شجاعا . كبير الآمال والأطماع . وضع أساساً لقوة البابوية . بأن حث فالنتنيان الثالث أمبراطور الغرب أن يصدر سنة ٤٤٥ منشورا يعلن فيه أن أسقف روما فائق على جميع أساقفة الغرب . وانه يعتبر المرجع الأعلى لهم جميعا . وحتم على الاساقفة اتباع أسقف روما فى كل ما يقرره وهدد كل من يخالف ذلك ببطش الحكومة وقوتها . وتعتبر مساعى ليون الخطوة الاولى فى تفوق البابا فى غرب أوربا . فلما سقطت الامبراطورية الغربية (٤٧٦) أصبح أسقف روما بطبيعة الحال الوارث للأمبراطورية واعتبره الجميع زعيما وممثلا لهم أمام قواد البرابرة . وأخذ الاسقف يباشر بعض أعمال الحكومة

وفى منتصف القرن الخامس قام نضال وصراع بين المسيحية وبين العقليات الشرقية والغربية . فكان الخلاف على طبيعة المسيح مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنسية فى القرون الاولى . وكان لاختلاف المذاهب فى تلك المسألة أكبر الأثر فى النظر فى المعقولات . وفى التأمل الفلسفى

انقسمت النصرانية إلى عدة طوائف أشهرها اليعقوبية والملكانية إذ كان اليعاقبة يرون ان المسيح هو الله . وأن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح . وقال الملكانيون : ان للمسيح طبيعتين متميزتين . الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية . ولم يقتصر الخلاف بين النصارى على العقيدة فى الله . بل اختلفوا فى مسائل أخرى كثيرة . هل ينزل المسيح قبل يوم القيامة . أو لا ينزل؟ وهل الحشر يكون للأرواح والابدان أو للأرواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله . أو هى هى ؟ وقد لجأت النصرانية إلى الفلسفة الاغريقية لتستعين بها على الجدل . ولتؤيد تعاليمها وعقائدها

كان من نتائج تعدد الشيع الكنسية اتفاق البابا مع الامبراطور مرقيانوس « ٤٥٠ — ٤٥٧ » على عقد مجمع عام فى خلقيدونية « ٤٥١ » وكانت نتيجة هذا المجمع اخراج المعتقدين الطبيعة الواحدة فى المسيح من الكنيسة ، وكانت الكنيسة المصرية تتبع القائلين بالطبيعة الواحدة ؛ فلما انصاع أمبراطرة بيزنطة الى أوامر المجمع الخلقيدونى ، أرادوا أن يلزموا المصريين بالأخذ بالمعتقد الذى قرره ذلك المجمع ، فعزلوا ديوسقوروس بطريق الاسكندرية وأنفذوا مكانه أسقفا أرثوذكسيا وأخذا يضطهدون كل من أبى اتباع رأيهم . ولكن المصريين ثبتوا على أفكارهم ، ولم يزدهم الاضطهاد إلا رسوخا فى ايمانهم فاشتد بذلك الخصام بين الفريقين ، وشرع موظفو الحكومة وجنودها يسيئون معاملة اليعاقبة لا سيما المعارضين منهم فى تغيير الاساقفة اليعاقبة بأساقفة ملكانيين سواهم

كان من جراء الاضطهادات الدينية التى ابتدأت منذ أواسط القرن الخامس اتساع حركة الرهبنة إلا أنها كانت غير مستقرة حتى ظهر القديس بندكت « ٤٨٠ — ٥٤٣ » ووضع للأديرة نظاما خاصا مكنها من أن تقوم بدور جدى فى تاريخ أوربا . وفى أواخر القرن السادس ولي غريغورى أسقفا لروما « ٥٩٠ — ٦٠٤ » فكان أول من رفع منار البابوية بعد أن كانت مجرد أسقفية ، وذلك لما كان له من اليد الطولى فى ارسال القسيسين والرهبان ليبشروا بالدين بين الوثنيين واعادة المسيحية فى جنوب انجلترا بعد أن محاها السكسون الوثنيون

ومنذ ذلك الوقت زادت قوة الكنيسة وثروتها واتسعت أملاكها وزادت العناية بترتيب الطقوس الدينية والموسيقى والصلوات فى الكنيسة ، وبهذه الوسيلة اجتذبت الكنيسة غير المسيحيين اجتذابا لم يكن لها من قبل

وفى صدر عام ٦٣١ م أراد هرقل أن يجمع مذاهب الدولة المختلفة ويوحدها خصوصا التوفيق بين اليعاقبة والملكانيين ، فاجتمع الأمبراطور فى هيرابولس ، ببولس مطران أرمينيا وفيرس مطران فاسيس وأثناسيوس مطران أنطاكية ، فكانت نتيجة مناظرتهم أن اقروا التوفيق بين المذاهب المختلفة ، وكان ذلك التوفيق يقضى بان يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا ان له ارادة واحدة او قضاء واحدا

ثم أعقب هذا الوفاق ولاية فيرس بطرقة الدين فى الاسكندرية وفهرب بنيامين بطريق القبط ، والظاهر ان مجيئه شرد قسيسيهم ، فقد كان فيرس بطريقا وواليا على حكومة مصر من قبل الدولة الرومانية وجامعاً سلطتى الدنيا والدين ، فلما قدم تظاهر بأنه انما جاء مسالما . وجعل يبين للناس كنه المذهب الجديد (المونوفيلى) وهو المذهب الذى كان الأمبراطور يطمع أن يزيل به ما أحدثه

مجمع خلقيدونية من الشقاق بين الناس فكان عليه ان يستميل إلى المذهب الجديد أقباط مصر أولا واتباع المذهب الملكانى ثانيا . ولكن الظاهر ان مذهبه لم يلق منذ أول الأمر توفيقا ، فقد أساء هو بيانه وايضاحه ، وأساء الناس فهمه وتلقوه لقاء سيئا ، فأما اتباع المذهب الملكانى فقد رأى كثير منهم أن المذهب الجديد نقض تام لمذهب خلقيدونيه ، فان من سمع منهم بالبدعة الجديدة قال ان المذهب الجديد ما دام قد سلم بأن الله له ارادة واحدة وفعل واحد فانه لابد أن يسلم بان له كذلك طبيعة واحدة ، وعلى ذلك فان قيرس إنما جاء فى الحقيقة مسلما بالمذهب المنوفيسى ، فاخفق قيرس فى سعيه لأنه كان يود أن يحمل القبط على المذهب الذى تقرر مهما تكلف فى سبيل ذلك . فلم يعبأ بما أدخله الأمبراطور على المذهب من التهذيب . بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تقصير فيهما وهما قبول الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد فدخل فى مذهبه من لم يستطع الهجرة أو الهرب . ولجأ الى التقية وأظهر غير ما يبطن

وفى أوائل القرن الثامن وصل الاسلام فى فتوحاته الى جبال البيرنية غربا والقسطنطينية شرقا . فأصبحت أوربا محصورة وأصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية وضاعت السلطة التى كانت تربط العالم المسيحى بالامبراطورية فلم ينتصف القرن الثامن حتى زال آخر مظهر من مظاهر السلطة الادارية للقسطنطينية بايطاليا . ولما تولى بوبين عرش الفرنجة عام ٧٥٤ كان ذلك بدء ظهور قوة البابويه واهمال واجب الرعوية للقسطنطينية والواقع أن المناطق التى لم يمتلكها الاسلام شطرها فأصبح الانشقاق عن الأمبراطورية حقيقة تامة وأصبح انشقاق الكنيسة أمرا متوقعا . واستحوذ الاسلام على أهم مراكز المسيحية فى الشرق خصوصاً الكنائس التى أسسها الرسل وهى بيت المقدس واسكندرية وأنطاكية ، ولم يعد ينافس روما إلا القسطنطينية ولكن أسقف الأخيرة بقى تحت سلطة الامبراطور بينما كان أسقف روما بعيداً عنه ومستقلا عن نفوذه

كان تأثير قرب الاسلام من الدولة الرومانية الشرقية أن أدى إلى لزوم الاصلاح باخراج الصور والتماثيل المقدسة من الكنائس ، والامتناع عن عبادة العذراء ، ووجوب تزوج القسيسين ، وانضم الامبراطور ليون الثالث إلى هذه الحركة فأثار سخط الكنائس الغربية وأعلن مجلس روما سنة ٧٣٢ ان تحطيم هذه الصور زيغ ، وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ليون ، واتسعت مسافة الخلف بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وزادت قوة روما باعتمادها على تلك الدولة الفتيــة (دولة الفرنجة)

لما ساد نظام الاقطاع فى أوربا فى أثناء القرن العاشر انحط شأن البابوية وأصبح مركزها موضع نزاع الاحزاب فى روما . واعتلى عرشها أناس لا خلاق لهم كانوا سببا فى تشويه سمعتها الدينية فسقطت أهميتها فى نظر المسيحيين

كان الاساتذة ورؤساء الاديرة تابعين للملوك أو للأشراف حسب نظام الاقطاع فكان للملك أو للشريف حق تقليد الاسقف الجديد أو رئيس الدير وظيفته ، ومنحه الاراضي الواسعة بعد أن يقسم له يمين الطاعة والولاء ، ويتسلم منه شارات الوظيفة . ومن ثم أصبحت الوظائف الدينية مرغوبا فيها بسبب الارض الواسعة التي كانت تابعة لها فاستغل الامراء هذه الرغبة وأخذوا يبيعون الوظائف الدينية ، ثم اتبع الاساقفة وبقية رجال الكنيسة هذه الطريقة ، وصاروا يبيعون الوظائف لمن هم أقل منهم فانحطت الوظائف الدينية في نظر الناس

واستمر انحطاط الكنيسة والبابوية حتى جاء الامبراطور هنري الثالث فاهتم بالوظائف الدينية وعين بها رجالا ذوي كفاءة ومقدرة ، وعند ذلك بدأ البابوات يشعر بقوتهم ويعملون على اصلاح المساوىء حتى يعيدوا مجد البابوية الاولى ، وتتمتع الكنيسة باستقلالها وترغم الملوك والأمراء على طاعتها . وعلى ذلك بدأ في القرن الحادي عشر دور كفاح بين السلطتين الزمنية والدينية ، ولم ينته هذا القرن حتى انتصرت البابوية على الامبراطور وابتدأ البابا يفكر في السيطرة على جميع العالم المسيحي باخضاع الكنيسة الشرقية واخراج المسلمين من بيت المقدس . فكان ذلك بدأ الحروب الصليبية (١٠٩٧) التي انتهت باحتلال بيت المقدس ، إلا أن السلاجقة أخذوا يوحدون قواهم فلم ينتصف القرن الثاني عشر حتى استرجعوا ما أخذه الصليبيون وظلوا في نضالهم فلم تنته هذه الحروب الا في أواخر القرن الثالث عشر

لم ينته القرن الثالث عشر حتى كان الملوك قد نجحوا في تكوين حكومات قوية ، وفي اخضاع الأشراف والمدن ، وفي القضاء على نظم الاقطاع تدريجيا ، وأخذوا ينكرون على السلطة الدينية تدخلها في شئونهم الداخلية والسياسية ولم يقبلوا أوامر البابا أو يكترثوا بتهديداته ، كما كانوا يفعلون سابقا بل أخذوا يفرضون الضرائب على ممتلكات رجال الدين ويستولون عليها . وفي أواسط القرن الرابع عشر أعلن ويكلف بانجلترا (١٣٢٠ — ١٣٨٤) حق السلطة الزمنية في ممتلكات الكنيسة اذا أساءت الكنيسة ادارة هذه الممتلكات ، وأعلن أنه ليس للبابا قدرة إلا في حدود الكتب المقدسة وأخذ يطعن في البابوية وادعاءاتها ونظمها ، والأساليب التي كانت متبعة في ذلك الوقت . وسرعان ما انتشرت آراؤه في أوربا وخصوصا في بوهيميا حيث كانت الصلات بينها وبين انجلترا ودية . فقام يوحنا هوس من جامعة براغ ونشر آراء ويكلف وأعلن أنه لا يحق للانسان أن يطيع أوامر اناس مثقلين بالذنوب والخطايا . ومن ثم اشتد انتقاد الكنيسة والبابوية . فخشيت السلطة الدينية والسلطة السياسية انتشار هذه الأفكار فاقترحت جامعة باريس أن يعقد مجلس ديني عام تكون سلطته وارادته فوق ارادة البابا ويترك لهذا المجلس علاج الحال . فعقد أول مجلس

فى بيزا (١٤٠٩) وثانى مجلس فى كنستانس (١٤١٤) وكانت أهم أعماله محاكمة دوس فقرر دينونته وحكم عليه بالحرق فلم يكن لذلك من نتيجة سوى تقوية حركة المعارضة

ظل الفساد الذى أصاب رجال الدين والكنيسة يتضاعف حتى نشأت مسألة بيع صكوك الغفران . فكان يمنح الغفران مقابل الاعتراف والتوبة والجزاء بالصيام أو الحج او الزكاه ولكن قرر البابا ليون العاشر عام ١٥١٥ بيع صكوك الغفران للناس عامة عن كافة الآثام التى ارتكبها الأحياء والأموات وعهد الى نفر من أعوانه بنشر الدعوة وجمع المال بطريق المصارف حتى انتقل الغفران إلى عملية تجارية بعيدة عن تقاليد الكنيسة وعقائد الدين . وظهر فى ذلك الوقت المصلح العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٠) فعلق على كنيسة وتنبرج (١٥١٧) احتجاجا على بيع الصكوك خاصة ومبدأ الغفران عامة فتجاوبت أنحاء ألمانيا بصدى هذا الاحتجاج وانضمت اليه الآلاف من الأشياع والأنصار . فأوفد البابا رسله الى لوثر ليناقشوه فى دعواه استنادا على السلطة البابوية المستمدة من تقاليد العهود الطويلة . فأنكر لوثر عقيدة الكنيسة وسلطتها العليا . وأعلن أن الكتاب المقدس وحده قانون العقائد ومصدر الدين

انتقل بعد ذلك من بحث مسألة الغفران إلى الى بحث العقائد على اطلاقها لوضع أساس عقيدته الدينية وعقيدته السياسية التى تضمنت علاقة الكنيسة بالحكومة فى كتابه المعروف باسم « رسائل الاصلاح »

وفى عام ١٥٢١ حوكم لوثر فى ورمس أمام مجلس الامبراطور فكان ثابت العقيدة فى مبدأ واحد يميزه عن كل معاصريه وهو اعتبار البابا عدوا للمسيح وسلطته هادمة لقواعد المسيحية فحكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية كما حرم من الحقوق الدينية من قبل

عكف لوثر بعد ذلك على ترجمة الانجيل من اللغة الاغريقية لاول مرة ترجمة تمتاز ببساطة العبارة وقوة الاسلوب بحيث كانت هذه الترجمة أكبر دعوة وجهت إلى الجماهير، ونقلت موضوعات البحث والمناقشة من الخاصة إلى العامة

ظل البروتستانت اتباع لوثر فى صراع مع الكاثوليك فاقتصرت الكنيسة البروتستانتية على الانتشار فى ألمانيا واسكندناوة ، لان خضوعها بحكم تعاليم لوثر للسلطة الزمنية جعلها عاجزة بطبيعتها عن الانتشار بمجهودها الذاتى فى البلاد التى تلقى فيها معارضة من السلطات الحاكمة . لذلك انتشرت دعوة الاصلاح فى أوربا فى صور أخرى لاتخالف الدعوة اللوثرية كثيرا فى عقائدها وانما تخالفها فى نظام الحكم فى كنائسها

وقد ظهرت أول دعوة للاصلاح البروتستانتى خارج المانيا فى مدن سويسرا وكان القائم بها

زونجل (٢٤٨٤ — ١٥٣١) . بدأ دعوته فى زوريخ وجعل أساسها نقد صكوك الغفران والاعتماد على الكتاب المقدس وحده ، كما فعل لوثر ولكنه خالفه فى تفسير العقائد ، وفيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم فى الكنيسة على أن كنيسة زونجل لم تصادف نجاحا إلا فى موطنها وفيما يليها من الولايات الألمانية الجنوبية أما فى باقى انحاء أوربا فقد تطرق الاصلاح بواسطة كالفن « ١٤٠٩ — ١٥٦٤ » الذى نشأ بفرنسا وكان من المتأثرين بدعوة الاصلاح فلاقى ما لاقاه غيره من الاضطهاد ، ففر الى استراسبورج حيث وضع رسالة فى أصول الدين المسيحى ضمنها تعاليمه ومعتقداته . وهى تتضمن الاعتماد على الكتاب المقدس وحده ، شأنه فى ذلك شأن لوثر

أخذ الكاثوليك يقاومون البروتستانت ، فعمدوا الى كثير من الوسائل لمقاومة المذهب الجديد ومن ذلك محاكم التفتيش وطوائف اليسوعيين (الجزويت) ومجلس ترنت الكنسى (١٥٤٥ — ١٥٦٣) فأدت هذه الوسائل الى صراع دينى خطير طول القرن السادس عشر ، انتهى كما بدأ بشطر أوربا شطرين ، الكاثوليك والبروتستانت الا أن انجلترا دون ممالك أوربا ظلت منقسمة ازاء الاصلاح الدينى الى فريقين متساويين تقريبا ، فاضطربت شئون البلاد سنوات طويلة ولكن هذه المشكلة الدينية حسمت فى نهاية الامر فى عهد الملكة اليزابيث باتخاذ موقف وسط بين الفريقين المتنازعين ، وذلك باعادة كافة المظاهر الخارجية للكنيسة الكاثوليكية ، أما العقائد الدينية فقد حولت تحويلا يتفق ومذهب كالفن ، فنشأت من ثم كنيسة خاصة بانجلترا أطلق عليها اسم « الكنيسة الانجليكانية »